تفسير سورةُ الحج
من آية (5) إلى آية (13)
اللقاء الثاني

المعنى الإجمالي من آية (1) إلى آية (4):

يقولُ اللهُ تعالى: يا أيُّها النَّاسُ، اتَّقُوا رَبَّكم، واحذَروا عِقابَه، بامتِثالِ أوامِرِه، واجتنابِ نواهيهِ، إنَّ ما يَحدُثُ يوم القيامةِ مِن أهوالٍ عظيمةٍ شَيءٌ عَظيمٌ، يومَ تَرَونَ زلزلةَ السَّاعةِ تَنسى المرضِعةُ رَضيعَها الذي ألقَمَتْه ثَدْيَها، وتشتغِلُ عنه؛ لِمَا نَزَل بها مِنَ الكربِ، وتُسْقِطُ الحامِلُ حَمْلَها مِنَ الرُّعبِ، وتَغيبُ عُقولُ النَّاسِ، فيَصيرون كالسُّكارى؛ مِن شِدَّةِ الهَولِ والفَزَعِ، ولَيسُوا بسُكارى مِن الخَمرِ، ولكِنَّ شِدَّةَ العذابِ أفقَدَتْهم عُقولَهم وإدراكَهم!

يقولُ اللهُ تعالى: ومِن النَّاسِ مَن يجادِلُ في دينِ اللهِ وفي قُدرته تعالى على البَعثِ، مِن غيرِ علمٍ، ويتَّبِعُ كُلَّ شَيطانٍ طاغٍ مُتَمَرِّدٍ على اللهِ ورُسُلِه. قضى اللهُ وقدَّر أنَّ ذلك الشَّيْطانَ يُضِلُّ كُلَّ مَن اتَّبَعه، ولا يَهديه إلى الحَقِّ، بل يَسوقُه إلى عذابِ جَهنَّمَ الموقَدةِ؛ جَزاءَ اتِّباعِه إيَّاه.

أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾﴿5﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: قال الرازي: لَمَّا حكى اللهُ سُبحانَه عن الكافِرينَ الجِدالَ بغَيرِ العِلمِ في إثباتِ الحَشرِ والنَّشرِ، وذَمَّهم عليه، أورَدَ الدَّلالةَ على صِحَّةِ ذلك؛ فقال تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ) أي: يا أيُّها النَّاسُ، إنْ كُنتُم في شَكٍّ واشتِباهٍ مِن قُدرَتي على بَعْثِكم بعدَ مَوتِكم، فتَذَكَّروا أنَّني خلَقْتُ أباكم آدَمَ مِن ترابٍ؛ فالذي قدَرَ على خَلْقِكم أوَّلًا قادِرٌ على خَلْقِكم ثانيًا. موسوعة التفسير

- البعث: هو إحياء الله الناس مرة ثانية بعد موتهم، ليجزيهم في هذه الحياة الثانية على ما قدموه في حياتهم الأولى من خير وشر.
- هو إخراج الناس أحياءً من قبورهم، وإرسالهم إلى موقف الحشر؛ لحِسابهم والقَضاء بينهم وجَزائهم.

لماذا يجب أن نؤمن بالبعث؟ ولماذا يجب علينا أن نتعلم عن البعث؟ لأنه تختلف حياة من يؤمن بالبعث عن ذلك الذي لا يؤمن بالبعث، فمن يؤمن بأن هناك حياة أخرى، تجده يعيش مطمئنًا راضيًا يتمتع بالسكينة والقناعة وأمثالها من المشاعر التي هي أساس الحياة الإنسانية؛ لأن مثل هذا الشخص مطمئن غاية الاطمئنان إلى عدالة الله المطلقة، وكرمه ورحمته الواسعة، ومتيقن تمامًا بأن الدنيا وما فيها ممر لا مستقر، مكان للاختبار موقوت، وأنها الطريق إلى وجود حقيقي أبدي، ومن ثم فيتحمل مثل هذا الشخص الابتلاء، صابراً في الضراء، شاكراً في السراء، طامعاً في الثواب الذي وعد الله إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ، ويستخدم ما عنده من نعم فيما يعود عليه وعلى غيره بالخير والنفع، لأنه على يقين أنه محاسب على كل صغير وكبير، يراقب الله في أقواله وأعماله وسلوكه سواء كان هذا اتجاه الخالق أو اتجاه المخلوق، فيكون الايمان بالبعث اكبر رادع له عن القبائح وحاملاً له على الفضائل، أما الشخص الذي لا يؤمن بحياة أخرى فإنه سيسابق السنوات القليلة المحدودة التي يعيشها في الدنيا، وسيسيطر عليه الشعور بالضيق والقلق والاضطراب كلما تقدم به العمر وقصرت به طموحاته وآماله، وغالبًا ما يكون أمثال هؤلاء عرضة للأمراض النفسية والعصبية، والإصابة بأنواع الاكتئاب النفسي والقلق والانتحار؛ لأنه حصر الوجود كله في هذه الحياة الدنيا، فإن فشل فيها أو عجز عن القيام بما يسعى له فقد قيمة الحياة والوجود بأسره، بينما المؤمن تتسع الحياة عنده لتشمل الآخرة، ويكون له منها غاية وهدف يسعى لتحقيقه، فهي عنده مزرعة للآخرة ، الدنيا وسيلة لا غاية، فهو يستغني عن كل شيء فيها مقابل أن ينال رضا الله والدار الآخرة، فيخرج المؤمن بالبعث من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة بإيمانه وتصديقه فيسعد في كل الأحوال.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ)

قال السعدي: أي: شك واشتباه، وعدم علم بوقوعه، مع أن الواجب عليكم أن تصدقوا ربكم، وتصدقوا رسله في ذلك، ولكن إذا أبيتم إلا الريب، فهاكم دليلين عقليين تشاهدونهما، كل واحد منهما، يدل دلالة قطعية على ما شككتم فيه، ويزيل عن قلوبكم الريب.

أحدهما: الاستدلال بابتداء خلق الإنسان، وأن الذي ابتدأه سيعيده، فقال فيه:

(فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ) وذلك بخلق أبي البشر آدم عليه السلام.

قال الشنقيطي: (التحقيقُ في معنى خَلْقِه للنَّاسِ مِن ترابٍ: أنَّه خلق أباهم آدَمَ منه، ثمَّ خلق منه زَوجَه، ثمَّ خَلَقَهم منهما عن طريقِ التناسُلِ، كما قال تعالى: إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ [آل عمران: 59]، فلمَّا كان أصلُهم الأوَّلُ مِن تراب، أَطلَق عليهم أنَّه خلَقَهم من ترابٍ؛ لأنَّ الفُروعَ تَبَعٌ للأصلِ).

(ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ) أي: ثمَّ خَلَقْناكم -يا بَني آدَمَ- مِن مَنِيٍّ. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى) [القيامة: 37 – 40]

(ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ) أي: ثمَّ خَلَقْناكم مِن قِطعةِ دَمٍ حَمراءَ جامِدةٍ تَعلَقُ برَحِمِ المرأةِ. موسوعة التفسير

(ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ) أي: ثمَّ خَلَقْناكم مِن قِطعةِ لَحمٍ صَغيرةٍ بِمِقدارِ ما يُمضَغُ، مخلَّقةٍ وغيرِ مخلَّقةٍ. موسوعة التفسير

❁المرادَ بالمخَلَّقةِ: المصَوَّرةُ خَلقًا تامًّا، وأنَّ غَيرَ المخَلَّقةِ تعني السِّقْطَ قبلَ تمامِ خَلْقِه.

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: حَدَّثنا رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو الصَّادِقُ المصدوقُ، قال: "إنَّ أحَدَكم يُجمَعُ خَلْقُه في بَطنِ أمِّه أربعينَ يَومًا، ثمَّ يكونُ عَلَقةً مِثلَ ذلك، ثمَّ يكونُ مُضغةً مِثلَ ذلك، ثم يَبعَثُ اللهُ ملَكًا فيُؤمَرُ بأربَعِ كَلِماتٍ، ويُقالُ له: اكتُبْ عَمَلَه، ورِزْقَه، وأجَلَه، وشَقِيٌّ أو سَعيدٌ، ثم يُنفَخُ فيه الرُّوحُ". رواه البخاري

(لِنُبَيِّنَ لَكُمْ) أي: لنُعَرِّفَكم بابتداءِ خَلْقِكم، ونُظهِرَ لكم قُدرَتَنا. موسوعة التفسير

وقال الزَّجَّاجُ: أي: ذكَرْنا أحوالَ خَلقِ الإنسانِ لِنُبَيِّنَ لكم قُدرتَنا على ما نَشاءُ، ونُعرِّفَكم ابتداءَنا خَلقَكم. وقال صاحبُ النظمِ [أبو عليٍّ الجُرْجانيُّ]: لِنُبَيِّنَ لكم أنَّ البعثَ حقٌّ، يدُلُّ على هذا أنَ الآيةَ أُنزلتْ دَلالةً على البعثِ. وقال ابنُ مسلمٍ: لِنُبَيِّنَ لكم كيف نَخلُقُكم في الأرحامِ. وقال أهلُ المعاني: لِنَدُلَّكم على مَقدورِنا بتصريفِ ضُروبِ الخَلقِ).

(وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى) أي: ونُثبِتُ في أرحامِ الأمَّهاتِ ما نشاءُ إبقاءَه مِن الأجِنَّةِ إلى الوَقتِ الذي قدَّرْناه للولادةِ. موسوعة التفسير

قال الشِّنقيطيُّ: (الأَجِنَّةُ تختَلِفُ في ذلك حسبَما يشاؤُه اللهُ جلَّ وعلا؛ فتارةً تَضعُه أمُّه لستَّةِ أشهُرٍ، وتارةً لتِسعةٍ، وتارةً لأكثرَ مِن ذلك. وما لم يشأِ اللهُ إقرارَه مِن الحَملِ مجَّتْه الأرحامُ وأسقَطَتْه).

(ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا) أي: ثمَّ نُخرِجُكم مِن بُطونِ أمَّهاتِكم -إذا بلَغْتُمُ الأجَلَ الذي قدَّرْناه لخُروجِكم منها- أطفالًا. موسوعة التفسير

قال البِقاعيُّ: (ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ بعدَ ذلك طِفْلًا أي: في حالِ الطُّفولةِ؛ مِن صِغَرِ الجُثَّةِ، وضَعْفِ البَدَنِ والسَّمعِ والبَصَرِ، وجميعِ الحواسِّ؛ لئلَّا تُهلِكوا أُمَّهاتِكم بكِبَرِ أجرامِكم، وعِظَمِ أجسامِكم).

(ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ) أي: ثمَّ لِتَبلُغوا بالتَّدريجِ كَمالَ قُوَّتِكم وعُقولِكم. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) [غافر: 67].

قال ابن جزي: (لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ هو كمالُ القوَّةِ والعقلِ والتمييزِ، وقد اختُلِف فيه مِن ثماني عشْرةَ سنةً إلى خمسٍ وأربعينَ).

❁الأشد: سِنَّ الفُتُوَّةِ واستِجماعِ القُوى، وأصلُه مِنَ الشِّدَّةِ والقُوَّةِ والجَلادةِ.

(وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا) أي: ومِنكم -أيُّها النَّاسُ- مَن يموتُ قَبلَ أن يبلُغَ أشُدَّه، ومنكم مَن يُؤخَّرُ مَوتُه إلى أن يَبلُغَ أخَسَّ العُمُرِ وأدْوَنَه، فيَصيرُ ضَعيفًا في بَدَنِه وعَقْلِه، لا علمَ له ولا فَهمَ، بعد أن كان قَوِيًّا ذا فَهمٍ وعِلمٍ بالأشياءِ. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ) [النحل:]70.

وقال سُبحانَه: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ) [الروم: 54].

وقال عزَّ وجلَّ: (وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ) [يس: 68].

قال ابن القيم : إذا تأمَّلتَ ما دَعَا اللهُ سُبحانَه في كتابِه عِبادَه إلى الفِكرِ فيه، أوقَعَك على العِلمِ به سُبحانَه وتعالى وبوَحدانيَّتِه، وصِفاتِ كَمالِه ونُعوتِ جَلالِه؛ من عُمومِ قُدرتِه وعِلمِه، وكَمالِ حِكمتِه ورَحمتِه، وإحسانِه وبِرِّه، ولُطْفِه وعَدْلِه، ورِضاهُ وغَضَبِه، وثوابِه وعِقابِه؛ فبهذا تعَرَّف إلى عبادِه، وندَبَهم إلى التفَكُّرِ في آياتِه، ونذكُرُ لذلك أمثِلةً مِمَّا ذكَرَها اللهُ سُبحانَه في كتابِه، يُستَدَلُّ بها على غَيرِها؛ فمن ذلك: خَلقُ الإنسانِ، وقد نَدَبَ سُبحانَه إلى التفَكُّرِ فيه والنَّظَرِ، في غيرِ مَوضِعٍ مِن كِتابِه؛ كقَولِه تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا) [الحج: 5]، وقال تعالى: (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ) [الطارق: 5]، وقَولِه تعالى: (وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)[الذاريات: 21].

كل واحد منا إذا تأمل في تركيب بدنه، والتناسق بين أعضاء جسده، وكيف أن الله –تعالى– اختار أن يكون كل عضو في موقعه الذي هو فيه، وشاء جل وعلا أن يضعه في محله الذي يناسبه، ويؤدي وظيفته المناطة به، فإن المؤمن حين يتدبر ذلك ويستشعر قوله تعالى: (وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ) [الذاريات: 21]، يزداد إيمانه بخالقه الذي أوجده على هذه الهيئة البديعة، وخلقه بهذه الصورة الفريدة، وتظهر له عظمة الخالق وقدرته على كل ما يشاء وما يريد، فتضيء قلبَ المؤمن تلك الآياتُ الباهرات، وتسطع له أنوار اليقين، وتنمحي من قلبه غمرات الشك والريب، وتنقشع عنه ظلماتُ الجهل وغياهبُ الضلالة.

إن أدلة التوحيد على ربها ناطقات، شاهدةٌ بعظمة مدبّرها، ومرشدةٌ إلى بديع صنعه، فهذا الإنسان مكون من قطرة ماء، تقلّبتْ وانتقلت من طور إلى آخر حتى أصبحت عظامًا، ثم كساها سبحانه وتعالى

باللحم، وشدها بالأعصاب والأوتار، ونسجها بالعروق، وخلق الأعضاء وركَّبها تركيبًا بديعًا متناسقًا، لا تحيط العقول البشرية بأسراره، ولا تدرك الأفهام الإنسانية حقيقته وكنهه.

ففي عالمِه الظاهريّ جعَل الله مِن أعضائِه ومَلامحِه هيئةً كريمةً، فليس هناك يدٌ بأطولَ مِن الأُخرى، ولا سَاقٌ بأطول مِن الثانية، ولا عينٌ بأوسعَ من الأُخرى، ولا أذنٌ بأعرَض مِن الأُخرى ولا قَدمٌ بأطول من الأُخرى؛ ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: 14].

وفي عالَمِه الداخليّ تَجدُ تنسيقًا أعظمَ من التنسيقِ الخارجيّ، تَجدُ جهازًا للتَّنفُسِ، وجهازًا للهضمِ، وجهازًا للدَّم، وجهازًا للغِذاءِ، وجهازًا للفضَلاتِ، كلُّ هذه الأجهزةِ من مَعدةٍ وأحشاءٍ وأمعاءٍ تَعملُ وتَتآخَى في أداءِ وظيفتِها؛ فمَن الذي ألَّف بينها؟ مَن الذي وحَّد هدفَها ورسَم لها طريقَها؟ ذلك هو اللهُ ربُّ العالمين.

ثُم انْظرْ إلى عالَمِ الإنسانِ المعنويّ بعد أنْ منحه اللهُ القُوى المختلِفةَ، والغرائزَ المتباينةَ، والقُدراتِ المتصارِعةَ، ولكنَّ اللهَ – سبحانه وتعالى – نسَّقها، وجعَل الإنسانَ مُسيطِرًا عليها.

فاعْرِف نفسَكَ مِن أينَ جئتَ؟ ولماذا خُلِقتَ؟ فمَن عرَف نفسَه (ضعيف، عاجز، فقير) عرَف ربَّه (قوي، قادر، غني) ، من عرَف ربَّه أحبَّه، ورضي به رباً مشرعاً حكماً، له الأمر وله الحكم، (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)، حسبنا لنرضى بأقداره ونستلم لأحكامه (ناصيَتي بيدِك ماضٍ فيَّ حُكمُك عَدْلٌ فيَّ قضاؤُك)، هو سبحانه أعلم بما يصلح شأن الإنسان ويحقق له السعادة والخير.

فالإيمان بالله الخالق المدبر، الذي عندما يأمر فأمره الحق، وما عداه الباطل، والثقة بأنه سبحانه المشرع الذي ليس معه شريك في الخلق ولا يقبل معه شريكاً في الأمر، من أطاعه كان له الهداية والكفاية وسعادة الدارين، ومن عصاه واتبع هواه ضل كما سيأتينا في الأصناف الثلاث الجاهلين بالله، المعتدين على حق الله في الحكم والأمر، فلا ينقادوا للدستور السماوي ويتمادوا في غيهم ويضعوا دستور أرضي بشري، فيضلوا ويضلوا نسأل الله العفو والعافية.

ثمَّ ذكَر برهانًا قاطعًا آخرَ على البعثِ، قال السعدي: والدليل الثاني، إحياء الأرض بعد موتها **(وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ)** أي: وترى الأرضَ يابِسةً قاحِلةً ساكِنةً سُكونَ الأمواتِ، لا نباتَ فيها ولا زَرْعَ، فإذا أنزَلْنا عليها الماءَ تحرَّكَتْ بالنَّباتِ، وارتفَعَت وانتفَخَت. موسوعة التفسير

فهُمودُ الأرضِ بمَنزِلةِ مَوتِ الإنسانِ، واهتزازُها وإنباتُها بعْدَ ذلك يُماثِلُ الإحياءَ بعْدَ الموتِ.

قال الشنقيطي: (قولُه: وَتَرَى أي: يا نبيَّ اللهِ. وقيل: وترى أيُّها الإنسانُ المخاطَبُ، وهي رؤيةٌ بصَريَّةٌ تتعَدَّى إلى مفعولٍ واحدٍ).

كما قال تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [فصلت: 39].

(وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) أي: وأخرَجَت الأرضُ بذلك الماءِ مِن كُلِّ صِنفٍ حَسَنٍ يَسُرُّ النَّاظرينَ مِن أصنافِ النَّباتاتِ والزُّروعِ والثِّمارِ. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا) [النمل: 60].

قال أبو حيان: لما ذكر -سبحانه- من يجادل في قدرة الله بغير علم، وكان جدالهم في الحشر والمعاد، ذكر دليلين واضحين على ذلك. أحدهما: في نفس الإنسان وابتداء خلقه. وتطوره في أطوار سبعة، وهي: التراب، والنطفة، والعلقة، والمضغة، والإخراج طفلا، وبلوغ الأشد، والتوفي أو الرد إلى أرذل العمر والدليل الثاني: في الأرض التي يشاهد تنقلها من حال إلى حال فإذا اعتبر العاقل ذلك ثبت عنده جوازه عقلا، فإذا ورد الشرع بوقوعه، وجب التصديق به، وأنه واقع لا محالة.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾﴿6﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: قال الرازي: لَمَّا قَرَّرَ اللهُ سُبحانَه الدَّليلَينِ السَّابِقَينِ، رَتَّب عليهما ما هو المطلوبُ والنَّتيجةُ.

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ) أي: ذلك الذي ذَكَرْنا لكم -أيُّها النَّاسُ- مِن أطوارِ خَلْقِكم، وإحياءِ الأرضِ بالماءِ بعدَ مَوتِها؛ لِتَعلَموا بأنَّ الذي قدَرَ على فِعلِ ذلك هو الحَقُّ الذي لا شَكَّ فيه، الذي يَستَحِقُّ العِبادةَ وَحْدَه؛ فعِبادتُه حَقٌّ، وعِبادةُ ما سِواهُ باطِلةٌ. موسوعة التفسير

(وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى) أي: ولِتَعلَموا بأنَّ الذي قَدَرَ على تلك الأشياءِ العَجيبةِ قادِرٌ على إحياءِ الموتَى. موسوعة التفسير

أخبَرَ سُبحانَه أنَّه يُحْيي الموتى؛ لأنَّه تعالى أخبَرَ عن أهْوالِ السَّاعةِ بما أخبَرَ، وحُصولُ فائدةِ هذا الخبرِ مَوقوفةٌ على إحياءِ الموتى لِيُشاهِدوا تلك الأهوالَ، وقد ثبَتَ أنَّه قادرٌ على كلِّ شَيءٍ، ومن هذه الأشياءِ إحياءُ الموتى.

(وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) أي: وأنَّ اللهَ على كُلِّ شيءٍ قادِرٌ لا يُعجِزُه شَيءٌ مِنَ البَعثِ وغَيرِه. موسوعة التفسير

﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آَتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾﴿7﴾

(وَأَنَّ السَّاعَةَ آَتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا) أي: ولِتُوقنوا بأنَّ القيامةَ قادِمةٌ، لا شَكَّ ولا اشتِباهَ في وقوعِها. موسوعة التفسير

(وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ) أي: وأنَّ اللهَ يُحيي الموتى مِن قُبورِهم، فيُخرِجُهم إلى مَوقِفِ الحِسابِ؛ لِيُجازِيَهم بأعمالِهم؛ خَيرِها، وشَرِّها. موسوعة التفسير

قال الشيخ الشنقيطي في أضواء البيان: قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ* الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ).

أما براهين البعث فهي معلومة أربعة: خلق الأرض والسماوات، وإحياء الأرض بالنبات، ونشأة الإنسان من العدم، وإحياء الموتى بالفعل في الدنيا لمعاينتها:

❶البرهان الأول: خلق السماوات والأرض المشار إليه بقوله: الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً.

⇦لأنهما من أعظم المخلوقات، ومن قدر على خلق الأعظم فهو على غيره قادر من باب أحرى، وأوضح الله تعالى هذا البرهان في آيات كثيرة كقوله تعالى: (لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ). وقوله: (أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ) فكلها آيات كونية دالة على قدرته تعالى...

❷البرهان الثاني: إحياء الأرض بعد موتها، فإنه من أعظم الأدلة على البعث بعد الموت، كما أشار له هنا بقوله: وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ.

وأوضحه في آيات كثيرة كقوله:(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

❸ البرهان الثالث: نشأة الإنسان من العدم .

⇦لأن الإيجاد الأول أعظم برهان على الإيجاد الثاني، وقد أوضح ذلك في آيات كثيرة كقوله: (وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ)، وقوله: (قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ).

ذكر تعالى أن من أنكر البعث فقد نسي الإيجاد الأول، كما في قوله: (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ).

❸ البرهان الرابع: إحياء الموتى في الدنيا . النوم شبيه الموت، ولذلك يسميه العلماء بالوفاة الصغرى، فالنوم وفاة، والقيام من النوم بعث ونشور، (وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ) [الأنعام: 6]

ومن أذكار الصباح دعاء نردده كل يوم (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَدَّ عَلَيَّ رُوحِي...) ونقول (الحَمْدُ لله الذِي أحْيَانا بَعْدَ مَا أمَاتَنَا وإلَيْهِ النَشُور)

فهل من مدكر ومعتبر، نموت ونبعث، ونموت ونبعث في كل يوم، حتى نستعد ليوم عظيم، يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ.

وكذلك قصص احياء الموتى في القرآن والتي شهدنا الناس، كقتيل بني إسرائيل وطيور إبراهيم..... وغيرها

فالإيمان بالبعث والجزاء من أعظم أصول الإيمان، فإنَّ الله تعالى يجمَع بقُدرته ما تفرَّق من أجساد الأموات التي تحلَّلتْ، ثم يعيدُها كما كانت، ثم يعيدُ الأرواح إليها، ثم يشقُّ الأرضَ عنها، ثم يسوقُها إلى المحشر؛ للقضاء بينهم بالحق وجَزائهم على أعمالهم.

يَنفُخُ إسرافيلُ عليه السَّلامُ نَفختَيْنِ؛ نَفخةَ الصَّعْقِ التي تَموتُ الخلائقُ عندها، ونَفخةَ البَعْثِ التي يَحْيَون عندها.

وأهل القبور والموتى يبقون بعد النفخة التي فيها الصَّعقة وقبل نفخة البعث أربعين، وَعَنْ أبي هريرة عن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "ما بيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أرْبَعُونَ، قالُوا يَا أبَا هُرَيْرَةَ، أرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قَالَ: أبَيْتُ، قالُوا: أرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أبَيْتُ. قَالُوا: أرْبَعُونَ شَهْرًا؟ قَالَ: أبَيْتُ، قالَ: ثُمَّ يُنْزِلُ اللَّهُ مِنَ السَّماءِ ماءً فَيَنْبُتُونَ كما يَنْبُتُ البَقْلُ، ليسَ مِنَ الإنْسانِ شَيءٌ إلَّا يَبْلَى، إلَّا عَظْمًا واحِدًا، وهو عَجْبُ الذَّنَبِ، ومِنْهُ يُرَكَّبُ الخَلْقُ يَومَ القِيامَةِ" صحيح البخاري.

فإذا أراد الله بعْث الخلائق أنزَل من السماء ماءً – جاء في بعض الروايات صفته أنَّه كمَنِيِّ الرِّجال . فينبت أهلُ القبور من ذلك الماء (كما ينبت البقل)، فإذا تَمَّ خلقهم نفخ في الصُّور النفخة الثانية، فطارت أرواحُهم إلى أجسادهم، وانشقَّت الأرضُ عنهم، فخرَجُوا من قُبورهم سِراعًا: (خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ * مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ....) [القمر: 7، 8].

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾﴿8﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها: قال ابن كثير: لَمَّا ذكَرَ تعالى حالَ الضُّلَّالِ الجُهَّالِ المقَلِّدينَ، في قَولِه: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ)؛ ذكَرَ في هذه حالَ الدُّعاةِ إلى الضَّلالِ مِن رُؤوسِ الكُفرِ والبِدَعِ، فقال

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ) أي: ومِنَ النَّاسِ مَن يُجادِلُ رُسُلَ اللهِ وأتباعَهم في شأنِ اللهِ وتوحيدِه وقدرتِه بجَهلٍ، مِن غَيرِ عِلمٍ صَحيحٍ. موسوعة التفسير

قال الرازي: يدُلُّ على أنَّ الجِدالَ مع العِلمِ والهُدى والكِتابِ المنيرِ حَقٌّ حَسَنٌ.

(وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ) أي: ويُجادِلُ في اللهِ بمُجَرَّدِ رأيِه وهواهُ، بغيرِ دَلالةٍ صَحيحةٍ يَهتَدي بها للصَّوابِ، ولا كِتابٍ إلهيٍّ نيِّرٍ بيِّنِ الحُجَّةِ يُنيرُ عن حُجَّتِه ورأيِه، وإنَّما يقولُ ما يقولُ مِنَ الجَهلِ بمجرَّدِ ظُنونِه. موسوعة التفسير

قال ابن عاشور: والمُنِيرُ: المبيِّنُ للحقِّ؛ شُبِّهَ بالمصباحِ المضِيءِ في اللَّيلِ.

قال ابن القيم: رَتَّبَ سُبحانَه هذه الأمورَ الثَّلاثةَ أحسَنَ ترتيبٍ؛ فبدأ بالأعَمِّ، وهو العلمُ، وأخبَرَ أنَّه لا علمَ عندَ المعارِضِ لآياتِه بعَقلِه، ثمَّ انتقَلَ منه إلى ما هو أخَصُّ، وهو الهُدى، ثمَّ انتقَلَ إلى ما هو أخَصُّ، وهو الكِتابُ المبينُ؛ فإنَّ العلمَ أعَمُّ مِمَّا يُدرَكُ بالعَقلِ والسَّمعِ والفِطرةِ، وأخَصُّ منه الهُدى الذي لا يُدرَكُ

إلَّا مِن جهةِ الرُّسُلِ، وأخَصُّ منه الكِتابُ الذي أنزلَه اللهُ على رَسولِه؛ فإنَّ الهدى قد يَكونُ كِتابًا وقد يكونُ سُنَّةً.

﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾﴿9﴾

(ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) أي: يجادِلُ بالباطِلِ لاوِيًا جانِبَه وعُنُقَه؛ إعراضًا وتكبُّرًا عن قَبولِ الحَقِّ، واحتِقارًا لِداعيه؛ لِيَصُدَّ عن دينِ اللهِ وشرعِه. موسوعة التفسير

❁ثَانِيَ عِطْفِهِ: أي: لاوِيًا عُنُقَه تَكَبُّرًا.

قال تعالى:(إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ) [غافر: 56].

(لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ) أي: لذلك المجادِلِ في اللهِ بالباطِلِ ذُلٌّ ومَهانةٌ في الدُّنيا. موسوعة التفسير

قال السعدي: هذا من آياتِ اللهِ العَجيبةِ؛ فإنَّك لا تجِدُ داعيًا مِن دُعاةِ الكُفرِ والضَّلالِ إلَّا وله مِن المقتِ بينَ العالَمينَ، واللَّعنةِ والبُغضِ والذَّمِّ- ما هو حقيقٌ به، وكُلٌّ بحَسَبِ حالِه.

قال القرطبي: المرادُ بالخِزي ما يصيبُه مِن هوانٍ وذُلٍّ بما يجري له مِن الذِّكرِ القَبيحِ على ألسنةِ المؤمنينَ إلى يومِ القيامةِ، كما في قَولِه تعالى: (وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ) [القلم: 10] الآيةَ، وقَولِه: (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)[المسد: 1].

(وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ) أي: ونُذيقُه يومَ القِيامةِ ألَمَ عَذابِ النَّارِ المحرِقةِ. موسوعة التفسير

قال الشنقيطي: يُفهَمُ مِن هذه الآيةِ الكَريمةِ أنَّ مَن ثَنَى عِطْفَه استِكبارًا عن الحَقِّ وإعراضًا عنه، عامَلَه اللهُ بنَقيضِ قَصْدِه، فأذَلَّه وأهانه، وذلك الذُّلُّ والإهانةُ نَقيضُ ما كان يؤَمِّلُه مِن الكِبرِ والعَظَمةِ،

قال ابن كثير: فلمَّا استكبَرَ عن آياتِ الله لقَّاه اللهُ المذلَّةَ في الدُّنيا، وعاقَبه فيها قبْلَ الآخرةِ؛ لأنَّها أكبرُ همِّه، ومبلغُ علمِه.

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾﴿10﴾

(ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ) أي: يُقالُ له حينَ يذوقُ عَذابَ النَّارِ يَومَ القيامةِ: هذا العَذابُ الواقِعُ بك بسَبَبِ ما قَدَّمَتْه يداك في الدُّنيا مِنَ الكُفرِ والمعاصي. موسوعة التفسير

قال أبو السعود: والتَّعبيرُ باسمِ الإشارةِ ذَلِكَ وما فيه مِن معنى البُعْدِ؛ للإيذانِ بكَونِه في الغايةِ القاصيةِ مِن الهولِ والفَظاعةِ.

❁أي: بعَمَلِك، ولكِنَّه جرت عادةُ العَرَبِ أن تُضيفَ الأعمالَ إلى اليَدِ؛ لأنَّها آلةُ أكثَرِ العَمَلِ، فبها يُزاوَلُ أكثرُ الأعمالِ، فغلبَتْ على غيرِها، ولكونِ مباشرةِ المعاصي تكونُ بها في الغالبِ.

(وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ) أي: وفعَلْنا ذلك؛ لأنَّ اللهَ ليس بِذِي ظُلْمٍ للعِبادِ، فلم يكُنْ لِيُعَذِّبَهم بغيرِ ذَنبٍ اقتَرَفوه. موسوعة التفسير

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾﴿11﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها: قال الرازي: لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى حالَ المظهِرينَ للشِّركِ المجادِلينَ فيه؛ عقَّبَه بذِكرِ المنافِقينَ.

سَبَبُ النُّزولِ: عنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّه قال في قَولِه تعالى: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ: (كان الرَّجُلُ يَقدَمُ المدينةَ، فإنْ وَلَدَت امرأتُه غُلامًا، ونُتِجَت (وَضَعت وولَدَت) خَيلُه، قال: هذا دِينٌ صالِحٌ. وإنْ لم تَلِدِ امرأتُه، ولم تُنتَجْ خَيلُه، قال: هذا دينُ سَوْءٍ!). رواه بخاري

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ) أي: ومِنَ النَّاسِ مَن يَعبُدُ اللهَ على شكٍّ؛ فلم يَدخُلِ الإيمانُ قَلْبَه على نحوٍ يَقينيٍّ، بل هو في شَكٍّ وقَلَقٍ وتَرَدُّدٍ في دينِ اللهِ. موسوعة التفسير

قال الواحدي: (... فالذي يَعبدُ اللهَ على حَرفٍ قَلِقٌ في دينِه، على غيرِ ثَباتٍ وطُمأنينةٍ، كالذي هو على حَرْفِ الجَبَلِ ونَحوِه؛ يَضطرِبُ اضطِرابًا، ويَضعُفُ قيامُه، فهو يَعرِضُ أن يَقَعَ في أحدِ جانِبَيِ الطَّرَفِ، فقيل للشَّاكِّ في دينِه: إنَّه يَعبُدُ اللهَ على حَرفٍ؛ لأنَّه ليس على يَقينٍ في وَعدِه ووعيدِه، بخِلافِ المؤمِنِ؛ لأنَّه عبَدَه على يقينٍ وبَصيرةٍ، ولم يكُنْ على حَرفٍ يَسقُطُ عنه بأدنى شَيءٍ يُصيبُه).

(فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ) أي: فإنْ أصابَه خَيرٌ -كصِحَّةٍ، ورَخاءِ مَعيشةٍ، ورِزقٍ هَنيءٍ- ولم يقَعْ له مِنَ المكارِهِ شَيءٌ؛ رَضِيَ عن الإسلامِ، واستقَرَّ وثَبَتَ على عبادةِ اللهِ. موسوعة التفسير

(وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ) أي: وإن أصابَتْه مِحنةٌ وإنْ قَلَّتْ -كبَلاءٍ في بَدَنِه أو أهلِه، أو ضيقٍ في مَعيشَتِه- ارتدَّ فرَجَع إلى الوجهِ الَّذي كانَ عليه مِن الكفرِ. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ * وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ) [العنكبوت: 10- 11].

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما: ((أنَّ أعرابيًّا بايَعَ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على الإسلامِ، فأصاب الأعرابيَّ وَعْكٌ بالمدينةِ، فأتى الأعرابيُّ إلى رَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقال: يا رَسولَ اللهِ، أَقِلْني بَيعَتي(أقِلْني ما بايعتُك عليه مِنَ البقاءِ بالمدينةِ؛ مِن الإقالةِ: وهي تَركُ العَقدِ وإبطالُه)، فأبى رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ثمَّ جاءَه، فقال: أَقِلْني بَيعَتي، فأبى، ثمَّ جاءَه فقال: أَقِلْني بيعَتي، فأبى، فخرجَ الأعرابيُّ، فقال رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إنَّما المدينةُ كالكِيرِ؛ تَنفي خَبَثَها، ويَنصَعُ طَيِّبُها)رواه البخاري.

(خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ) ي: خَسِرَ هذا المنقَلِبُ على وَجهِه خيرَ دُنياه، فلم يَظفَرْ بحاجَتِه منها، وحُرِمَ الطُّمَأنينةَ وثَناءَ المسلِمينَ ومُوالاتَهم، وخَسِرَ خَيرَ آخِرتِه بدُخولِ النارِ، والحِرمانِ مِن الجَنَّةِ. موسوعة التفسير

قال الرازي: (يخسَرُ في الدُّنيا العِزَّةَ والكرامةَ، وإصابةَ الغَنيمةِ، وأهليَّةَ الشَّهادةِ، والإمامةَ والقضاءَ، ولا يبقَى مالُه ودَمُه مصونًا، وأمَّا في الآخرةِ فيَفوتُه الثوابُ الدائِمُ، ويحصُلُ له العِقابُ الدَّائِمُ).

(ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ) أي: خَسارَتُه لِدُنياه وأُخراه هي الخَسارةُ العَظيمةُ البَيِّنةُ التي لا تَخفَى. موسوعة التفسير

قال البقاعي: هذا بخِلافِ الرَّاسِخِ في إيمانِه؛ فإنَّه إن أصابَتْه سَرَّاءُ شكَر، وإنْ أصابَتْه ضَرَّاءُ حَمِدَ وصَبَر؛ فكُلُّ قَضاءِ اللهِ له خيرٌ.

قال ابن تيمية: فلا بُدَّ مِن أذًى لكلِّ مَن كان في الدُّنيا، فإنْ لم يَصبِرْ على الأذَى في طاعةِ اللهِ، بلِ اختارَ المعصيةَ؛ كان ما يَحصُلُ له مِن الشرِّ أعظمَ ممَّا فرَّ منه بكثيرٍ؛ (وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا) [التوبة: 49] ومَنِ احتَملَ الهوانَ والأذى في طاعةِ اللهِ على الكَرامةِ والعِزِّ في مَعصيةِ اللهِ -كما فعَلَ يُوسُفُ عليه السلامُ وغيرُه مِن الأنبياءِ والصَّالحينَ- كانتْ العاقبةُ له في الدُّنيا والآخِرَةِ، وكان ما حصَل له مِن الأذَى قد انقَلَب نعيمًا وسرورًا، كما أنَّ ما يَحصُلُ لأربابِ الذُّنوبِ مِن التنعُّمِ بالذُّنوبِ يَنقلِبُ حُزنًا وثُبورًا.

قال ابن القيم: العَبدُ على الحَقيقةِ مَن قام بعبوديَّةِ اللهِ على اختِلافِ الأحوالِ، وأمَّا عَبدُ السَّرَّاءِ والعافيةِ الذي يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ، فليس مِن عَبيدِه الذين اختارَهم لعُبوديَّتِه؛ فلا رَيبَ أنَّ الإيمانَ الذى يَثبُتُ على محَلِّ الابتِلاءِ والعافيةِ هو الإيمانُ النَّافِعُ وَقتَ الحاجةِ، وأمَّا إيمانُ العافيةِ فلا يكادُ يَصحَبُ العَبدَ، ويُبلِّغُه مَنازِلَ المؤمِنينَ، وإنَّما يَصحَبُه إيمانٌ يَثبُتُ على البلاءِ والعافيةِ.

إنْ قِيلَ: إنَّ الله تعالى قال: فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ، ومُقابِلُ الخيرِ هو الشَّرُّ، فلماذا قال: وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ، ولم يقُلْ: (وإنْ أصابَه شَرٌّ انقلَبَ على وجهِه)؟

فالجوابُ: لأنَّ ما يَنفِرُ عنه الطبعُ ليس شرًّا في نفْسِه، بل هو سَببُ القُربةِ ورفعِ الدَّرجةِ بشرطِ التَّسليمِ والرِّضا بالقضاءِ.

﴿يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾﴿12﴾

(يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ) أي: يدعو ذلك المرتَدُّ عن دينِ اللهِ آلِهةً سوى الله لا تضُرُّه ولا تَنفَعُه بذاتِها مُطلَقًا بأيِّ وَجهٍ مِن وُجوهِ الضُّرِّ أو النَّفعِ. موسوعة التفسير

(ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ) أي: دُعاءُ غيرِ اللهِ هو الذَّهابُ البَعيدُ عن الحَقِّ. موسوعة التفسير

﴿يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾﴿13﴾

(يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ) أي: يَدعو المشرِكُ مَخلوقًا ضَرَرُ عبادتِه أقرَبُ إليه مِن نَفعِها. موسوعة التفسير

(لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ) أي: لَبِئسَ النَّاصِرُ هذا المعبودُ مِن دُونِ اللهِ! ولَبِئسَ المعاشِرُ والمصاحِبُ هو؛ فإنَّه لا يَنصُرُ عابِدَه، ولا يجلِبُ له خيرًا ولا نَفعًا. موسوعة التفسير

قال السعديُّ: (فإنَّ المقصودَ من المولى والعشيرِ حصولُ النفع، ودفْعُ الضرر؛ فإذا لم يَحصُلْ شيء من هذا، فإنه مذمومٌ ملومٌ).

وقال الرازي: (واعلَمْ أنَّ هذا الوَصفَ بالرُّؤساءِ أليَقُ؛ لأنَّ ذلك لا يكادُ يُستعمَلُ في الأوثانِ؛ فبَيَّن تعالى أنَّهم يَعدِلونَ عن عبادةِ الله تعالى الذي يَجمَعُ خَيرَ الدُّنيا والآخرةِ إلى عبادةِ الأصنامِ وإلى طاعةِ الرُّؤساءِ، ثمَّ ذَمَّ الرُّؤساءَ بقَولِه: لَبِئْسَ الْمَوْلَى والمرادُ: ذَمُّ مَن انتصَرَ بهم، والتجَأَ إليهم).

ذَكَرَ اللهُ تعالى في آياتِ هذه السورةِ ثَلاثةَ أصنافٍ: صِنفٌ يُجادِلُ في اللهِ بغَيرِ عِلمٍ، ويَتَّبِعُ كلَّ شيطانٍ مَريدٍ، مكتوبٍ عليه إضلالُ مَن تَولَّاه، وهذه حالُ المتَّبِعِ لِمَن يُضلُّه. وصِنفٌ يُجادِلُ في اللهِ بغَيرِ عِلمٍ ولا هُدًى ولا كِتابٍ مُنيرٍ، ثانِيَ عِطْفِه ليُضِلَّ عن سَبيلِ اللهِ، وهذه حالُ المتبوعِ المستكبِرِ الضالِّ عن سبيلِ اللهِ. ثُمَّ ذَكَر حالَ مَن يَعبُدُ اللهَ على حَرْفٍ، وهذه حالُ المتَّبِعِ لهواهُ، الذي إنْ حصَلَ له ما يَهواه مِن الدُّنيا عبَدَ اللهَ، وإنْ أصابَه ما يُمتَحَنُ به في دُنياهُ ارتدَّ عن دِينِه؛ فهذه حالُ مَن كان مريضًا في إرادتِه وقصْدِه، وهي حالُ أهلِ الشَّهواتِ والأهواءِ. الدرر السنية

إنَّ العبدَ المؤمنَ هوَ الذي عَرَفَ الغايةَ من خلقِهِ في هذهِ الحياةِ الدُّنيا، وذلك من خلالِ قولِهِ تعالى: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)[الذاريات:56]، المؤمنُ الحقُّ الذي لا يُبارِحُ بابَ مولاهُ وخالِقِهِ في كلِّ أحوالِهِ، وفي سائرِ تقلُّباتِهِ، ويَظَلُّ مُلتصقاً ببابِهِ مُترامياً على أعتابِهِ؛ لأنَّهُ عبدُهُ ولأنَّهُ راجعٌ إليه، العبدُ المؤمنُ لا يعبدُ اللهَ –تعالى– على حالةٍ دونَ حالةٍ، ولا يعبدُ اللهَ –تعالى– على شرطٍ، ولا يتوجَّهُ إلى الله –تعالى– في حالةٍ دونَ أخرى، بل هوَ عبدٌ متمسِّكٌ بِبَابِ مولاهُ العزيزِ إنْ أعطاهُ أو مَنَعَهُ، إنْ قَبِلَهُ أو أقصاه، إنْ استجابَ دُعاءَهُ أو لم يَستَجِب، إنْ أَعزَّهُ أو أذلَّهُ، إنْ آتاهُ النِّعَمَ أو حَرَمَهُ إيَّاها، أمَّا العَبدُ الذي يُقبِلُ على الله –تعالى– عندما يَرى النِّعَمَ تَتْرَى عليهِ وتَهوي عليهِ من كلِّ جانبٍ، وعندما يَرى الخيرَ موفوراً بينَ يدَيهِ، وإذا ما تحوَّلت هذهِ النِّعَمُ عنهُ، وابتلاهُ اللهُ –تعالى– بشيءٍ من الخوفِ والجوعِ ونقصٍ من الأموالِ والأنفسِ والثَّمراتِ تبرَّمَ وأعرضَ واعترَضَ وتناسى عُبوديَّتَهُ لله –تعالى– فهوَ عبدُ سوءٍ، وهوَ في الحقيقةِ عَبْدُ نَفسِهِ وهواهُ ومصلحتِهِ، وهذا ينطبقُ عليه قولُ الله –تعالى–: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ) [الحج:11] –نعوذُ بالله أن نكونَ من ذلكَ الصِّنفِ–.

إنَّ العبدَ المؤمنَ الحقَّ هوَ الذي يكونُ شاكراً لمولاهُ في الرَّخاءِ، فلا يَصرِفُ هذهِ النِّعَمَ إلا وِفقَ طاعةِ الله –عزَّ وجلَّ–، إن أعطاهُ اللهُ –تعالى– نِعمةَ الجاهِ والسُّلطانِ، وإن أعطاهُ نِعمةَ الصِّحَّةِ والقُوَّةِ، وإن

أعطاهُ نِعمةَ المالِ وسائِرَ النِّعَمِ فهوَ لا يطغى بها؛ لأنَّهُ يعرفُ مصدرها بأنَّها من الله –تعالى– وأنَّ اللهَ –تعالى– ما أعطاهُ إيَّاها إلا للاختبارِ والابتلاءِ، (هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ)[النمل :40]، أمَّا في الشَّدائدِ والمِحَنِ والابتلاءاتِ فيكونُ صابراً؛ لأنَّهُ يطمعُ بعطاءِ الله –تعالى– بعدَ المِحَنِ، ولأنَّهُ على يقينٍ بأنَّهُ ما من مِحنةٍ إلا وتحملُ في طيَّاتِها مِنَحاً،(إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ) [الزمر:10]. [أحمد شريف النعسان]